الطائفية المتغلغلة في لبنان

حين تتحول الطوائف إلى أوطان صغيرة

بقلم: حسين محمود صالح

مقدمة الناشر

يُعد هذا الكتاب محاولة فكرية نقدية لفهم البنية الطائفية في لبنان، وتحليل تأثيرها على السياسة والمجتمع والاقتصاد والهوية الوطنية. لا يستهدف النص أي جماعة دينية أو مذهبية، بل يناقش استخدام الطائفية كأداة سياسية لإعادة إنتاج السلطة وتعميق الانقسام الاجتماعي.
يعتمد المؤلف لغة تحليلية أدبية تمزج بين السرد الواقعي والتأمل السياسي، في محاولة لرسم صورة عميقة للبنان المعاصر، بكل تناقضاته، وأزماته، وآماله المؤجلة.

الفصل التمهيدي

لبنان: الدولة التي لم تكتمل

لبنان ليس مجرد دولة صغيرة على الخارطة، بل هو تجربة تاريخية معقدة تشبه مختبراً دائماً للتناقضات السياسية والاجتماعية والثقافية. فمنذ نشأة الكيان اللبناني الحديث، ظل السؤال الأساسي معلقاً دون إجابة حاسمة: هل لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه، أم مجرد مساحة مؤقتة تتقاطع فوقها مشاريع الطوائف والمحاور الخارجية؟

هذا السؤال لم يكن فلسفياً فقط، بل تحول إلى أزمة وجودية انعكست على شكل النظام السياسي، وعلى طبيعة العلاقة بين المواطن والدولة، وعلى مفهوم الهوية الوطنية نفسها. ففي معظم دول العالم، تنشأ الدولة أولاً ثم تتشكل الانتماءات السياسية داخلها، أما في لبنان فقد وُلدت الطوائف أقوى من الدولة، وأكثر رسوخاً منها، وأكثر قدرة على التحكم بمصير الأفراد.

لقد قامت الصيغة اللبنانية على مبدأ "التوازن الطائفي"، بوصفه ضمانة لمنع هيمنة جماعة على أخرى، غير أن هذه الصيغة تحولت تدريجياً إلى نظام دائم لتقاسم النفوذ والمصالح. وهكذا، أصبحت كل مؤسسة رسمية انعكاساً للانقسام الطائفي، وتحول الولاء السياسي إلى امتداد للولاء المذهبي، بينما تراجع مفهوم المواطنة الجامعة إلى مرتبة ثانوية.

إن خطورة هذا الواقع لا تكمن فقط في تعطيل بناء الدولة، بل في إنتاج إنسان خائف، يعيش داخل قلق جماعي دائم، ويشعر أن أمنه وحقوقه مرتبطان ببقاء زعيمه الطائفي، لا بسيادة القانون أو قوة المؤسسات.

الفصل الأول

الطائفية: من التنوع الروحي إلى الانقسام البنيوي

في أصلها التاريخي، لم تكن التعددية الدينية في لبنان لعنة بحد ذاتها، بل شكلت عبر قرون طويلة مصدر غنى حضاري وثقافي. فقد تعايشت الطوائف المختلفة داخل هذا البلد الصغير، وأسهمت جميعها في صناعة نسيجه الاجتماعي والفكري والاقتصادي. غير أن المشكلة بدأت عندما تحولت الهوية الدينية من مساحة إيمان روحي إلى أداة تنظيم سياسي واجتماعي.

الطائفية لا تبدأ في البرلمان، بل تبدأ في الوعي. تبدأ حين يُلقن الطفل منذ سنواته الأولى أن انتماءه الأول ليس للوطن، بل للطائفة. تبدأ عندما يكبر الإنسان وهو يسمع روايات الخوف من "الآخر"، ويُربى على ذاكرة جماعية مليئة بالشكوك والهواجس التاريخية.

ومع مرور الزمن، تصبح الطائفة بديلاً عن الدولة. المدرسة، الوظيفة، الزواج، الحماية الاجتماعية، وحتى العدالة القضائية، كلها تمر عبر البوابة المذهبية. هنا يفقد المواطن فردانيته، ويتحول إلى رقم داخل جماعة مغلقة.

لقد أنتج هذا النظام مجتمعاً منقسمًا عمودياً، حيث يعيش اللبنانيون داخل حدود نفس الجغرافيا، لكن داخل خرائط نفسية وثقافية مختلفة. لكل جماعة سرديتها التاريخية، ووسائل إعلامها، وزعاماتها، وأبطالها، وحتى مخاوفها الخاصة.

الأخطر من ذلك أن الطائفية لم تعد مجرد ظاهرة سياسية عابرة، بل تحولت إلى اقتصاد قائم بذاته، وإلى شبكة مصالح معقدة تستفيد من استمرار الانقسام، لأن بقاء الخوف يضمن بقاء السلطة.

الفصل الثاني

هندسة الخوف: كيف تُدار الجماهير؟

الأنظمة الطائفية لا تحكم عبر التنمية، بل عبر القلق الجماعي. فالزعيم الطائفي لا يحتاج دائماً إلى تقديم حلول اقتصادية أو مشاريع إصلاحية حقيقية، لأنه يمتلك سلاحاً أكثر فاعلية: الخوف.

في لبنان، تمارس الأحزاب عملية نفسية ممنهجة تقوم على إقناع الجمهور بأن الطائفة مهددة دائماً، وأن وجود الحزب أو الزعيم هو الضمانة الوحيدة للبقاء. وهكذا، يصبح أي نقد للسلطة تهديداً للطائفة نفسها، وأي محاولة للتغيير مؤامرة تستهدف الجماعة.

هذا الخطاب يُنتج مواطناً محاصراً بالخوف الوجودي، غير قادر على التفكير بحرية أو مساءلة السلطة. فعندما يشعر الإنسان أن كيانه مهدد، تتراجع لديه الأسئلة المتعلقة بالفساد والعدالة والاقتصاد، ويتحول اهتمامه الأساسي إلى النجاة النفسية.

ولذلك، تُستحضر الحرب الأهلية باستمرار في الخطاب السياسي اللبناني، لا باعتبارها درساً تاريخياً يجب تجاوزه، بل كأداة تخويف دائمة. يتم نبش الذاكرة الجماعية واستدعاء صور المجازر والانقسامات بهدف إبقاء الناس داخل أسوار الطاعة السياسية.

إن أخطر ما في هذا النظام أنه يحول الإنسان من مواطن حر إلى كائن خائف، يرى في الزعيم حامياً لا موظفاً عاماً، وفي الطائفة ملاذاً لا انتماءً روحياً فقط.

الفصل الثالث

الحرب الأهلية: ذاكرة لم تُدفن

انتهت الحرب الأهلية اللبنانية عسكرياً، لكنها لم تنتهِ نفسياً وثقافياً. فالاتفاقات السياسية أوقفت القتال، لكنها لم تعالج الجروح العميقة التي خلفتها سنوات الدم والانقسام.

لقد دخل لبنان مرحلة "السلم الهش"، حيث توقفت البنادق، لكن بقيت المتاريس داخل العقول. وما زال اللبنانيون حتى اليوم يعيشون ضمن ذاكرة جماعية متصارعة؛ كل طائفة تمتلك روايتها الخاصة عن الحرب، وترى نفسها ضحية أو بطلة، بينما تُحمّل الآخرين مسؤولية الخراب.

هذا الانقسام في قراءة التاريخ منع نشوء ذاكرة وطنية موحدة، ومنع بالتالي بناء مصالحة حقيقية. فالمصالحة لا تتحقق بالصمت، بل بالمواجهة والعدالة والاعتراف المتبادل بالأخطاء.

لقد خرج أمراء الحرب من الخنادق ليدخلوا القصور السياسية، وتحولت الزعامات العسكرية إلى نخب حاكمة تدير الدولة بعقلية المحاصصة ذاتها. وبدلاً من بناء دولة حديثة بعد الحرب، جرى تقاسم الدولة كغنيمة بين القوى الطائفية.

وهكذا، بقي اللبناني يعيش فوق جمر قابل للاشتعال في أي لحظة، لأن أسباب الانفجار لم تُحل جذرياً، بل جرى تجميدها مؤقتاً.

الفصل الرابع

الزعيم والطائفة: صناعة التبعية

في الدولة الحديثة، يفترض أن تكون المؤسسات أقوى من الأفراد. أما في لبنان، فقد جرى عكس المعادلة بالكامل؛ إذ تحولت الزعامات الطائفية إلى مرجعيات تتفوق على الدولة نفسها.

لا يحصل المواطن على حقوقه باعتباره مواطناً، بل باعتباره تابعاً لجهة سياسية معينة. الوظيفة، العلاج، التعليم، وحتى الخدمات الأساسية، كثيراً ما تمر عبر الوساطة الحزبية.

هذا الواقع خلق ما يُعرف بـ"الزبائنية السياسية"، حيث يتم ربط لقمة العيش بالولاء السياسي. وكلما ازداد الفقر، ازدادت حاجة الناس للزعيم، وكلما ازدادت حاجتهم، ازداد نفوذ السلطة الطائفية.

لقد تحولت الأحزاب إلى بدائل فعلية عن مؤسسات الدولة، فأصبح المواطن يشعر أن الحزب أقرب إليه من الجمهورية نفسها. وهذه واحدة من أخطر نتائج انهيار مفهوم الدولة الحديثة في لبنان.

الفصل الخامس

الإعلام الطائفي وصناعة الحقيقة المجزأة

الإعلام في لبنان ليس مجرد ناقل للأخبار، بل هو جزء من الصراع السياسي والطائفي. فمعظم المؤسسات الإعلامية مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بأحزاب وقوى سياسية، ما يجعل الخطاب الإعلامي انعكاساً للانقسام القائم.

كل قناة تمتلك روايتها الخاصة للحدث، وكل صحيفة تقدم "حقيقتها" المختلفة. وهكذا، يتحول المواطن إلى متلقٍ داخل فقاعة سياسية مغلقة، يسمع فقط ما يعزز قناعاته المسبقة.

لقد فقد الإعلام في كثير من الأحيان دوره الرقابي، وتحول إلى أداة تعبئة وتحريض. ومع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي، توسعت هذه الظاهرة بشكل أخطر، حيث باتت الجيوش الإلكترونية تساهم في نشر الكراهية والتضليل وصناعة الانقسام.

إن أخطر ما يفعله الإعلام الطائفي هو أنه يمنع تشكل وعي وطني موحد، ويجعل الحقيقة نفسها خاضعة للهوية السياسية والمذهبية.

الفصل السادس

الاقتصاد المنهار: حين تلتهم الطائفية الدولة

لم يكن الانهيار الاقتصادي اللبناني مجرد أزمة مالية عابرة، بل كان نتيجة طبيعية لعقود من الفساد والمحاصصة وغياب التخطيط.

لقد جرى استخدام مؤسسات الدولة كمزارع سياسية، وتوزيع المناصب وفق الولاءات لا الكفاءات، مما أدى إلى تآكل الإدارة العامة وانهيار الثقة بالمؤسسات.

ومع تفاقم الأزمة، دفع المواطن الثمن الأكبر: انهارت العملة، تبخرت المدخرات، وارتفعت معدلات الفقر والهجرة بشكل غير مسبوق.

لكن الكارثة الأعمق ليست اقتصادية فقط، بل أخلاقية أيضاً؛ إذ يشعر اللبناني اليوم أن الدولة تخلت عنه بالكامل، وأن النظام السياسي عاجز أو غير راغب في إنقاذ المجتمع.

الفصل السابع

الهجرة: الوطن الذي يطرد أبناءه

لم تعد الهجرة في لبنان مجرد خيار لتحسين مستوى المعيشة، بل أصبحت شكلاً من أشكال النجاة النفسية والاجتماعية.

جيل كامل من الشباب فقد الثقة بالمستقبل، ولم يعد يرى في وطنه مساحة لتحقيق أحلامه. ولذلك، أصبحت المطارات مليئة بالوجوه التي تغادر وفي داخلها شعور ثقيل بالخذلان.

إن أخطر ما تخسره الدول ليس المال، بل الإنسان. ولبنان اليوم ينزف أهم موارده: شبابه، ومتعلميه، وأصحاب الكفاءات.

كل طائرة تغادر تحمل معها جزءاً من المستقبل الذي كان يمكن أن يُبنى هنا.

الفصل الثامن

تسييس المقدس

حين يُستخدم الدين كوسيلة للوصول إلى السلطة، يفقد المجال السياسي توازنه الأخلاقي.

في لبنان، جرى توظيف الرموز الدينية والخطاب العقائدي بشكل واسع لتبرير الصراعات السياسية وتحصين الزعامات من النقد. فأصبح الاعتراض على الحزب يُفسر أحياناً كأنه اعتداء على الطائفة أو الدين نفسه.

هذا الخلط بين المقدس والسياسي يمنع النقاش الحر، ويخلق بيئة قائمة على التخوين والاتهامات العاطفية.

إن الأديان في جوهرها منظومات أخلاقية وإنسانية سامية، لكن تحويلها إلى أدوات حزبية يسيء إليها أكثر مما يخدمها.

الفصل التاسع

نحو دولة المواطنة

رغم كل الانقسامات، لا يزال هناك أمل. فقد بدأت أجيال جديدة تطرح أسئلة مختلفة، وترفض أن تُختزل هويتها داخل القوالب الطائفية التقليدية.

إن مستقبل لبنان الحقيقي لا يمكن أن يُبنى إلا على مفهوم الدولة المدنية الحديثة؛ دولة تحترم القانون، وتساوي بين المواطنين، وتفصل بين السلطة السياسية والانتماءات المذهبية.

هذه المعركة ليست سهلة، لأن النظام الطائفي متجذر منذ عقود طويلة، لكنه ليس قدراً أبدياً. فكل الأنظمة التي تقوم على الخوف والانقسام تحمل داخلها عوامل انهيارها مع الزمن.

التغيير يبدأ أولاً من الوعي؛ من رفض الكراهية، ومن الإيمان بأن الإنسان أكبر من طائفته، وأن الوطن لا يُبنى بالمتاريس النفسية بل بالشراكة والعدالة.

الخاتمة

لبنان: البحث المؤلم عن وطن

لبنان اليوم يشبه وطناً عالقاً بين احتمالين: إما الاستمرار في دوامة الانقسام والانهيار، أو الشروع في رحلة شجاعة نحو إعادة بناء الدولة والهوية الوطنية.

ورغم كل ما حدث، ما زال هذا البلد يمتلك طاقات بشرية وثقافية هائلة، وما زال اللبنانيون قادرين على إنتاج الحياة والإبداع حتى وسط الركام.

الحلم اللبناني الحقيقي ليس مستحيلاً؛ أن يعيش الإنسان في وطن لا يُسأل فيه عن مذهبه قبل كفاءته، ولا يحتاج فيه إلى زعيم ليحصل على حقوقه، ولا يخاف فيه من شريك الوطن المختلف عنه.

قد يكون الطريق طويلاً، لكن كل تغيير تاريخي بدأ بفكرة، وكل وطن عادل بدأ بكلمة حرة.

عن الكاتب

حسين محمود صالح
كاتب وناشط سياسي فلسطيني من لبنان، يهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية وحقوق الإنسان، ويركز في كتاباته على تحليل البنى الطائفية وتأثيرها على المجتمعات العربية، إضافة إلى قضايا الهوية والعدالة والاغتراب الإنساني.